التعليم بين الكم والكيف

عصر النهضة والتعليم

إن التعليم هو أساس النهضة والتقدم ولم تتقدم أمة إلا بعدما حسَّنت نظام التعليم فيها ، وما تخلفت أمة إلا بسبب تخلف نظامها التعليمي هذا مقرر لا يختلف فيه اثنان ولا تتناطح فيه عنزتان .

ومع تولي محمد على حُكم مصر عام ١٨٠٥ أراد أن يلحق بركب يلحق بركب الحضارة الغربية عبر بوابة العلم والتعليم فأدخل النظام التعليمي الحديث علي النمط الأوروبي عامة والنمط الفرنسي خاصة ، فأنشأ المدارس العالية (١٨١٦) والمدارس التجهيزية (١٨٢٥) والمدارس الابتدائية (١٨٣٢) . واهتم بالمرحلة العالية من التعليم حيث أنشأ المدارس المتخصصة أولاً مثل : مدرسة الطب البشري، ومدرسة المهندسخانة ، ومدرسة الإدارة والألسن ، وازداد الاهتمام بالتعليم وأرسلت البعثات إلي أوروبا بفضل جهود رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك رائدي التعليم . ثم أُنْشأ مدرسة المعلمين (دار العلوم) عام (١٨٨٠) لتزويد المدارس بصفوة من معلمي اللغة العربية .

ومع وقوع مصر فريسة للاحتلال الإنجليزي عام (١٨٨٢) حدثت نكسة للتعليم ، ولكن مع بداية القرن العشرين بدأت نهضة علمية قادها المثقفون والمهتمون بالتعليم من المجتمع الأهلي أثمرت عن قيام العديد من المدارس وإنشاء الجامعة الأهلية التي افتتحت عام ١٩٠٨ .

كتب الزعيم مصطفى كامل عن مشروع الجامعة : " يرفع شأن الأمة ويعد لها رجالاً أقوياء ذوي مدارك واسعة وإحساسات عالية يردون إليها مجدها وعظمتها ومقامها بين

الأمم " وجاء في تقرير اللجنة الدائمة التي شُكلت لوضع لائحة داخلية لتنظيم شئون الجامعة ما نصه :" أن الغرض من إنشاء الجامعة هو ترقية مدارك وأخلاق المصريين على اختلاف أديانهم وذلك بنشر الآداب والعلوم." [1]

التعليم والبحث العلمي في الحقبة الليبرالية

ومع ثورة ١٩ واستقلال مصر سياسيّاً بدأ الاهتمام بالتعليم في الزيادة ، وجاء دستور ١٩٢٣ الذي نص علي أن "التعليم الأولي إلزامي للمصريين بنين وبنات " .

في هذه الحقبة الليبراليَّة أُنْشِئت جامعات مصر الكبرى : القاهرة (١٩٢٥)، الإسكندرية (١٩٤٢) ، عين شمس (١٩٥٠) وكانت لها مكانة كبيرة بين جامعات العالم وخاصة جامعة القاهرة التي كانت من أفضل جامعات العالم حينئذ [2] كما تعدُّ ساعتها ثاني أقدم وأشهر ساعة علي مستوى العالم بعد ساعة (Big Ben).

وكما أُنْشِئت في تلك الحقبة أعرق المدارس الثانويَّة : السعديَّة ، الخديويَّة ، السنيَّة، الخديو إسماعيل ، الإبراهيميَّة ، النقراشي ، الفسطاط ، مصر القديمة ، المعادي ، .... هذا في محافظة القاهرة ، وأمثالها الكثير في المحافظات والمراكز والمدن الكبرى وكانت تشتمل كل مدرسة بالإضافة إلى طرازها المعماري الفخم على : مسرح كبير تمارس فيه كافة فنون المسرح والتمثيل والإلقاء والخطابة ، وكان صاحب الفضل في اكتشاف معظم المواهب الفنيَّة الشهيرة في عالم الفن الجميل .. ، وملعب واسع تمارس فيها كل الأنشطة الرياضيَّة وكان معمل تفريخ المواهب الرياضية ، وحديقة جميلة ومنسقة كانت يتعلم الطلاب فيها فنون الزراعات المختلفة وتنسيق الحدائق والزهور ، ومعامل حديثة فيها كافة الأجهزة لإجراء التجارب العلميَّة العمليَّة ، كما كانت تشتمل

---

(١) نقلاً عن د. مصطفى سويف " مصر الحاضر ولمستقبل " دار الهلال ص ٢٣ .

(٢) صدر تقرير علمي، أعده معهد التعليم العالي بجامعة جياو تونج بشنغهاي بالصين، تضمن قائمة بأفضل خمسمائة جامعة على مستوى العالم خلال عام ٢٠٠٦ ، ولم يكن فيها أي جامعة عربيَّة في مقابل أنَّ إسرائيل احتلَّت المركز الثاني عشر بعدد ٧ جامعات من أصل ١٥ جامعة إسرائيليَّة ، وفي أحد الإحصائيات عن أفضل ٣٠٠٠ جامعة في العالم للعام ٢٠٠٦ كانت الجامعة العربية الأولى هي الجامعة الأمريكية ببيروت وترتيبها (١٢٩٥) وجامعة القاهرة كان ترتيبها (٣٩٠٢) !!

هذه المدارس على مطبخ يقدِّم الوجبات الساخنة للطلاب . لقد كانت مدارس الحقبة الليبراليَّة مدارس علميَّة بحق يشهد لها كل عباقرة مصر الأفذاذ الذين تخرَّجوا فيها على يد معلِّمين أكفاء لا همَّ لهم إلا التربيَّة السليمة والتعليم الجيِّد المتطوِّر .

كلُّ هذا كان بالمجان فقد كان كل التعليم قبل الجامعي كله دون مصروفات ، والتعليم العالي بمصروفات زهيدة يُعْفَى منها المتفوِّقون وغير القادرين ؛ فقد تبرَّع الملك فاروق بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه لسداد مصروفات الطلبة الجامعيين غير القادرين ، ولمَّا تولى طه حسين وزارة المعارف في حكومة الوفد الأخيرة أطلق صيحته المدوَّية " التعليم كالماء والهواء " وكان لهذه الصيحة أثر كبير على المستوى الأكاديمي العالي وإقبال الكثير عليه ، خاصة بعدما أَعْفَى جميع طلاب التعليم العالي غير القادرين من سداد المصروفات .

فمجانية التعليم لم تكن اختراعاً ناصريّاً كما يدعي الناصريون الذين يواجهون كل من يظهر سلبيات التجربة الناصرية بقولهم يكفي عبد الناصر فخراً أنه لولاه ما تعلَّم أمثالك ولا التحقوا بمدارس ولا جامعات !!

وكما أنشئ في الحقبة الليبراليَّة : مَجْمَع اللغة العربيَّة ، مصلحة الأرصاد الجويَّة، مدينة فاروق الأول للبعوث الإسلاميَّة ، المجلس الأعلى للبحوث العلميَّة والصناعيَّة (المركز القومي للبحوث فيما بعد) . الجمعيَّة المصريَّة للدراسات التاريخيَّة ، صدور قانون حفظ الآثار ، معهد الوثائق والمكتبات ، المتحف الزراعي، نجاح د. مهندس بحري فؤاد بهجت في تصميم وإنتاج أول غوَّاصة صغيرة في العالم ، إنتاج أوَّل طائرة تدريب مصريَّة بمحركات توربينية .

إنشاء عيد العلم وتكريم الخريجين ، توزيع جوائز فؤاد وفاروق العلميَّة على المتفوقين (جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية فيما بعد) .

من أعلام نهضة الحقبة الليبراليَّة

لذا لا عجب أن تشهد هذه الحقبة التاريخيَّة كوكبة من المَبْدعين في شتى المجالات لم تشهد مصر مثلهم فيما بعد ، ففي مجال الفكر الإسلامي : محمد عبده ، رشيد

رضا ، محمد فريد وجدي ، محمود شلتوت ، عبد الحليم محمود ، محمد الغزالي ... ، في مجال السياسة والقانون : سعد زغلول ، ومصطفى النحاس، أحمد لطفي السيد ، عدلي يكن ، عبد الخالق ثروت ، مكرم عبيد ، محمد نجيب الهلالي ، علي ماهر ، د. عبد الرزاق السنهوري ود.حلمي بهجت بدوي ...، وفي مجال العلم : مصطفى مشرَّفة ، سميرة موسى ، حسين فوزي ، علي إبراهيم... ، والفكر والثقافة والأدب : العقاد ، طه حسين ، إبراهيم مدكور ، نجيب محفوظ ، زكي مبارك ، أحمد أمين ، أحمد حسن الزيات ، عبد القادر المازني ، شوقي ضيف ، سهير القلماوي، مصطفى سويف ... ، في مجال التاريخ : عبد الرحمن الرافعي ، محمد شفيق غربال ، سليم حسن ، ... في مجال الشعر الفصيح: أحمد شوقي ، حافظ إبراهيم ، عبد الرحمن شكري ، إبراهيم ناجي ، على محمود طه ، أحمد زكي أبو شادي ،... وشعر العامية: أحمد رامي ، حسين السيد ، عبد الفتاح مصطفى ، أحمد شفيق كامل ، ... وفي مجال الموسيقى والغناء : سيد درويش ، رياض السنباطي ، محمد عبد الوهاب ، محمد القصبجي ، محمد فوزي ، أم كلثوم ، أسمهان ، ليلى مراد ... في مجال أدب الأطفال : كامل الكيلاني ، عبد التواب يوسف ، يعقوب الشاروني ... ، وفي مجال التمثيل والإخراج : يوسف وهبي ، نجيب الريحاني ، بديع خيري ، أمينة رزق ، على الكسار ، جورج أبيض، زكي طليمات ، عزيز عيد ، زكي رستم ، ...

وهذه الكوكبة من المبدعين كانوا منارة العلم والثقافة ورواد التنوير ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي كله ، هؤلاء كانوا قوة مصر الناعمة التي قادت العالم العربي علمياً وثقافياً وسياسياً ودان لهم بالفضل والعرفان .

إن هذا التأثير المصري في الأمَّة العربيَّة في شتى ألوان العلوم والمعارف والفنون هو ما يسمى بالقوَّة الناعمة التي سبق الحديث عنها . [1]

ثورة يوليو والنهضة

بنجاح ثورة يوليو انتهت الحقبة الليبراليَّة والنهضة الثانية في العصر الحديث وبدأت مرحلة الديكتاتوريَّة العسكريَّة التي فاقت حقبة محمد علي في استبدادها وحُرِمَت من

([1]) لمزيد من التفاصيل عن الحقبة الليبرالية راجع كتابنا "حضارات مصر ونهضاتها" دار زهور المعرفة والبركة.

إنجازيها : تكوين جيش قوي ، ونهضة علميَّة وثقافيَّة بل قضت ثورة يوليو على هذين الإنجازين .

فإذا كان محمد عليّ قد أقام نظاماً ديكتاتوريّاً مستبدّاً استأثر فيه بالسلطات الثلاث: التشريعيَّة ، والتنفيذيَّة ، والقضائيَّة ، وأقصى فيه كلَّ القوى الوطنيَّة التي جاءت به إلى الحكم ، وقضى على دور الأزهر الشريف وعلمائه ، وأقام نظاماً اقتصاديّاً احتكر فيه كل أنشطة الاقتصاد : الزراعيَّة ، والصناعيَّة ، والتجاريَّة ؛ فتحكَّم بذلك في رقاب الناس وأرزاقها ، كما بيَّنا ، ولكن يحسب له أنه بنى جيشاً قويّاً ، وأقام نهضة علميَّة وثقافيَّة حديثة .

أما ثورة يوليو وإن خلَّصت مصر من الاحتلال الإنجليزي البغيض ، والحكم الملكي الفاسد وقامت ببعض الإصلاحات وحقَّقت للشعب بعض المطالب في العامين الأولين من قيامها إبان حكم مجلس قيادة الثورة ، لكن ما إن وصل جمال عبد الناصر للحكم واستبد به وحده حتى أقام نظاماً فاشستيّاً احتكر السلطات الثلاث وكافة الأنشطة الاقتصاديَّة ووسائل الإعلام والثقافة واستعبد البلاد والعباد جميعاً ، وقضى على جيش مصر العظيم ، وأفسد نهضة مصر الناشئة، وأسَّس نظاماً عسكريّاً استمر نحو ستين عاماً تردَّت فيها الأحوال في شتَّى المجالات ، وأصبحت مصر أم الدنيا ومعلِّمة الأمم الحضارة عالةً على الغرب والشرق علميّاً واقتصاديّاً حتى قامت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ التي قضت على الحكم العسكري مُحْتَكِر السلطة والاقتصاد والإعلام والتعليم والثقافة .

حقيقة مدارس ثورة يوليو

بالنسبة لنظام التعليم في مصر بعد ثورة يوليو فإن مجلس قيادة الثورة بعد مصادرة أموال أسرة محمد علي قرر بناء مدرسة ، ووحدة صحية في كل قرية؛ لكسب رضا الجماهير للشرعية الثورية التي كانت في صراع مع الشرعية الدستورية التي كان ينادي بها محمد نجيب ، والحقيقة أن المدارس التي بنيت في الكفور والنجوع ومعظم

القرى لا تستحق أن يطلق عليها اسم مدرسة ، وأن كتَّاب القرية كان أفضل منها وأجدى ففي قريتنا كان هناك كتَّاب للقرية تعلَّم فيه أحد أعمامي ، وأحد أخوالي فحفظا القرآن الكريم كله وأتقنا القراءة والكتابة وشيئاً من الحساب والدين والمعارف العامة . وعندما بُني في قريتنا نزلة داود مركز طهطا محافظة سوهاج مدرسة في أول الستينات التحق بها أعمامي وأخوالي وخالاتي الصغار. كانت المدرسة عبارة عن بيت صغير جداً تبرع به عمدة القرية يشتمل على حجرات ثلاث أو أربع وعدد العمال بالمدرسة لا يزيد عن خمسة : واحد للحراسة والنظافة، وواحد للإدارة والتدريس، وثلاثة مدرسين آخرين غير مؤهلين يدرسون كل المواد الدراسية هذه هي نوعية المدارس التي بنيت في الكفور والنجوع والتي يفاخر بها رجال الثورة . المفاجأة الأكبر أن الجيل الأول من أخوالي وخالاتي الذي تعلم في هذه المدرسة خرجوا منها بعد أربع سنوات أو خمس لا يحسنون القراءة والكتابة ، ومازالوا جميعاً أحياء يشهدون على ذلك .

في أي مدارس تخرج عظماء مصر ؟

إن المدارس الكبرى التي تخرج فيها العلماء والمفكرون والأدباء والمثقفون البارزون ترجع إلى العهد الملكي ، في الغالب ، تلك المدارس التي بنيت وتأهل العاملون بها في عصر ما قبل الثورة لذا عندما يشيد بعض العلماء والمفكرين الذين تعلموا في العهد الناصري بجودة التعليم في تلك الفترة إنما يعنون تلك المدارس الكبرى وهؤلاء المعلمين العظام الذين علموهم ، أما فساد التعليم في العهد الناصري فلم تظهر نتائجه السيئة دفعة واحدة إنما بدأ الفساد ينخر فيه كالسوس شيئاً فشيئاً .

يقول أحمد زويل في كتابه عصر العلم : " كان نظام التعليم في مصر ممتازاً يقوم على مبدأ المنافسة الشريفة في بيئة اجتماعية متجانسة ، وحظي المعلمون بمكانة بالغة الاحترام والتقدير من تلاميذهم والمجتمع بأسره ، وانعكس ذلك على العلاقة بين التلميذ وأستاذه ، التي كانت أصيلة ومشجعة وليست ملتفة حول الدروس الخصوصية

لغايات مادية ، وكان التعليم يمثل قيمة اجتماعية عليا حظيت باحترام وتقدير الكافة ، وتمتع المتفوقون من التلاميذ بمكانة اجتماعية مرموقة من كافة المجتمع ، وكان الحديث يجري على ألسنة الناس في دسوق بأن " فلان الفلاني" تلميذ متفوق ، فيثني عليه السامعون ثناء جميلاً ، فالتفوق الدراسي يتبوأ أصحابه مكانة اجتماعية عالية ، وقد يؤهلهم لمصاهرة عائلات مرموقة ، وعموماً فإن ذاكرتي عن التعليم في زماني تزخر بصور إيجابية تفوق أية صورة سلبية في هذا المجال . " [1]

فتلك المدارس [2] التي تخرج فيها أحمد زويل وصديقاه : السياسي الكبير مصطفى الفقي ، والشاعر الكبير فاروق جويدة كانت تنتمي فعليّاً (كمنشآت ، وهيئة تدريس، وإدارة ، ونظام) إلى عصر ما قبل الثورة وإن جاء وقت التحاقهم بها بعد الثورة فقد استمرت هذه المدارس الكبرى تسير بقوة الدفع الذاتي إلى وقت غير قصير بعد الثورة، ثم ما لبثت أن لحقتها الآثار السلبية للتعليم فيما بعد .

يقول د. رشدي سعيد العالم المصري الكبير مقارناً بين ما درسه قبل الثورة ، وما درسه ابنه كريم بعد الثورة : "انتهت سني دراسة كريم بالقومية لكي يلتحق بالمدرسة الثانوية بالمعادي ، والتي كانت في حالة أسوأ بكثير من مدرستي الثانوية التي التحقت بها قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين سنة ، فبالإضافة إلى فساد الانضباط كان هناك انحطاط مستوى المدرسين وتخلف المناهج التي كُتب الكثير منها في فترة وزارة السيد كمال الدين حسين أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة وقد كلَّفنا ذهاب أبنائنا إلى المدارس أكبر جهد لكي نزيل منهم في كل صيف ما ترسَّب في أدمغتهم من السلبيات التي كانت هذه المناهج تصبها فيها ، وكانت وداد الأم تقضي الليالي الطويلة لفك طلاسم النحو العربي حتى يصبح له منطق ، ولتعليم اللغة الإنجليزية ، ولقراءة كتب خارجية عن مناهج المدرسة لتفتح أمام أبنائها حضارات العالم الواسع . " [3]

([1]) د . أحمد زويل " عصر العلم " دار الشروق ص ٣٦ .

([2]) تلقى زويل تعليمه الابتدائي في مدينة دسوق وحصل علي الشهادتين الابتدائية والإعدادية من مدرسة النهضة وحصل علي الثانوية من مدرسة دسوق .

([3]) د. رشدي سعيد " رحلة عمر " مرجع سابق ص ٨ .

مهمة الجامعة في العهد الناصري ؟

استهلَّ عبد الناصر عهده بالعصف بكل من أيَّد محمد نجيب والديمقراطية فراح يقصي ويعتقل كل مفكري الديمقراطيين الأحرار ، بما فيهم أساتذة الجامعة ؛ فلم تعد مهمة الجامعة في العصر الناصري تطلع بتخريج العلماء والمفكرين لقيادة النهضة في الأمة إنما أصبحت مهمتها إرضاء الشعب بإلحاق أبنائه بها وحصولهم على شهادتها مهما كان مستواهم العلمي يؤهلهم لذلك أم لا !

يروي كمال الدين حسين هذه القصة إبان توليه وزارة التربية والتعليم فيقول : " بعد أن تقدمت ببيان سياسة وزارة التربية والتعليم إلى مجلس الأمة وصل إلى علمي رأي عام في المجلس للموافقة على فتح باب الانتساب في الجامعات بدون قيد أو شرط !! ولم أهتم في بادئ الأمر إلا أنه في أحد اجتماعات مجلس الوزراء وكان يرأسه عبد الناصر أن قال لي بعد الجلسة : يا أبو كمال ما تسيب باب الانتساب في الجامعات مفتوح للجميع ، عايزين الناس تبقى مبسوطة .

قلت له : مش ممكن ياريس .. إحنا حددنا القبول لمن نجح وحصل على ٥٠% أما غيرهم فلن تكون هناك أماكن لاستيعابهم ولا أساتذة ولا مدرجات .

فابتسم وقال : بكره تشوف مجلس الأمة حيعمل لك إليه .

وفوجئت أن عدداً من الأعضاء تقدموا بمشروع قرار برغبة إباحة الانتساب للكليات النظرية في الجامعات الثلاث وكانت وقتئذ جامعة القاهرة وعين شمس والإسكندرية لجميع الحاصلين على الثانوية العامة دون التقيد بحصولهم على ٥٠% تقدموا بالمشروع يوم ٢ ديسمبر وبدأت جلسات المناقشة .. وبعد قفل باب المناقشة أخذت الأصوات فنال مشروع القرار برغبة الأغلبية ووجدت نفسي أنني لن أستطيع تحقيق هذه الرغبة لأنها ضد الصالح العام وليس الغرض منها إلا كسب رخيص لإرضاء الجماهير ، وذهبت إلى مكتبي وكتبت استقالتي .. وفي يوم الأحد ١٥ ديسمبر طلب عبد الناصر أن يقابلني وحضر المشير عبد الحكيم عامر وتم الاتفاق أن يرفض عبد

الناصر الاستقالة على أن يعلن أن السياسة التي تعرضها الوزارة على مجلس الأمة لوزاراتهم هي تعبير عن سياسة الحكومة ، ووافق عبد الناصر وانتهت الأزمة ." [1]

وعن التوسع الكمِّي على حساب الكيف في العهد الناصري يقول : د. منصور فايز الأستاذ الجامعي وطبيب عبد الناصر الخاص : " كان الرئيس يتحدث معي من آن لآخر حول شئون الجامعة بوصفي أستاذاً بكلية الطب جامعة القاهرة . في أحد الأيام ذكر لي أنه علم من ابنته هدى ، وكانت طالبة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية أن الأساتذة يصلون متأخرين عن ميعاد المحاضرة ، وأحياناً لا يحضرون بتاتاً دون اعتذار أو إرسال من ينوب عنهم في إلقاء المحاضرة . وفي الوقت نفسه كانت ابنته منى الطالبة بالجامعة الأمريكية تقول إن الأساتذة مواظبون على دخول المحاضرات في مواعيدها تماماً .. وفي الواقع ولو أن اللوم يقع على بعض أعضاء هيئة التدريس لعدم مواظبتهم على الحضور إلا أن التوسع في التعليم الجامعي وتزايد عدد الطلبة في الكليات ، دون ارتباط بين الأعداد واحتياجات الدولة من الخريجين كان السبب في تدهور التعليم الجامعي حسب رأيي، وقد سبق أن تحدثت مع الرئيس في ذلك مبدياً وجهة نظري هذه بمناسبة اجتماع لمدير الجامعة بأعضاء هيئة التدريس بكلية الطب قال فيه مدير الجامعة : إن شعار جامعات الأعداد الكبيرة غير قابل للمناقشة . ولكن عبد الناصر لم يقتنع بوجهة نظري وقال لي : " وإيه يعني لمَّا يكون سوَّاق التاكسي معاه ليسانس ؟ " [2]

آراء العلماء والمفكرين في أسباب تدهور التعليم

وعن مستوى خرجي الجامعات المصرية بعد الثورة يقول د. رشدي سعيد : " لقد أهملت مصر تعليم أبناءها سنوات طويلة ووضعت مسئوليته في أيدٍ جاهلة ، وهي تجني الآن ثمار ما زرعته ، ولا يتعلق الأمر هنا بالصدع الذي أحدثه هذا التعليم في

([1]) سامي جوهر " الصامتون يتكلمون " مرجع سابق الصفحات ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ .

([2]) د. منصور فايز " رحلتي مع عبد الناصر " دار الملتقى للطباعة والنشر ص ٩٨ ، ٩٩ .

وحدة الوطن ، بل إنه يتعلق أيضاً بعجز المدرسة والجامعة المصرية عن تخريج من يقدرون على أن يديروا شئونها اليومية فضلاً عن إدارة مستقبلها ، فالمهندسون حديثو التخرج لا يعرفون من مبادئ الهندسة ما يكفي لكي يديروا منظومة الري التي خلفها لهم الأجداد بأية كفاءة أو ليراقبوا مبنى يقام حتى يأتي سليماً يصون من يستخدمه . وخريجو كليات الحقوق والبوليس لا يعرفون تاريخ بلادهم أو لا يعرفون شيئاً عن ميثاق حقوق الإنسان ، والكثير منهم غير مؤهل لحماية الأرواح أو الحكم بين الناس بالعدل والإنصاف ." [1]

وعن سني دراسته الجامعية قبل الثورة يقول د. رشدي : " كانت سنوات الدراسة بالجامعة من السنوات السعيدة في حياتي ، فعندما التحقت بكلية العلوم بجامعة القاهرة في سنة ١٩٣٧ كان التعليم فيها حرّاً وفاتحاً للآفاق ، كنا نستمع إلى محاضرات الأساتذة الذين كانوا يوجهوننا إلى المراجع لنعود إليها في المكتبة نستخلص منها الجديد الذي كنا نناقشه معهم ، وكان عمر الكلية عندما التحقت بها اثني عشر عاماً وكانت الوحيدة التي تقوم بتدريس العلوم الحديثة في مصر وفي العالم العربي كله ، وكان معظم أساتذتها من الأجانب الذين اختيروا من بين أفضل الأساتذة الأوربيين ذوي الصيت الذائع ، وكان عدد طلاب الكلية صغيراً فلم يزد عدد طلاب دفعتي عن السبعين مما سمح بتوثيق العلاقة بين الطالب والأستاذ وتيسير استخدام المكتبة وممارسة الحوار الحر مع الأساتذة .

وكانت الجامعة المصرية بالفعل وعلى الأخص كلية العلوم التي التحقت بها معهداً متقدماً به الكثير من الأساتذة الأوروبيين الذين كانوا ينتقون من بين أفضلهم والذين كان من الممكن جذبهم للعمل في مصر في ذلك الوقت " [2] .

كان عبد الناصر لا يثق في المتعلمين والمثقفين. لذلك حرص على أن تكون الجامعات تحت سيطرته. فدس العملاء في الاتحادات الطلابية وغير نظام العمداء

([1]) د. رشدي سعيد " رحلة عمر " مرجع سابق ص ٨، ٩ .
([2]) د. رشدي سعيد " رحلة عمر " مرجع سابق ص ٤٦.

وأصبح الاختيار بالتعيين بدلاً من الانتخاب. وجنَّد الطلاب لمراقبة المدرسين وزملائهم وكتابة التقارير السرية عنهم. ووطئت أحذية الشرطة الحرم الجامعي. وهذا سبب فساد الجامعة إلى اليوم.

يقول د. عبد الرحمن بدوي عن مهمة أساتذة الجامعة في الحقبة الناصرية : " لا أحد يريد إصلاح الجامعة ، بل كان هدف الحاكم هو إخضاع كل عضو هيئة تدريس في كل الجامعات كي يكونوا أبواق تتشدق بكيل المديح للحاكم المطلق ونظامه الباغي المتهاوي . " [1]

ويقول أيضاً تحت عنوان " الانهيار الخلفي والعلمي في الجامعة " : وقد انتشرت الوشاية والتبليغ واستعداء السلطات والعمل مع المخابرات – انتشارا هائلاً بين أعضاء هيئة التدريس في الجامعة . وحسبي أن أذكر الحادث التالي :

في صيف سنة ١٩٦٦ أقام أساتذة كلية الطب في جامعة القاهرة حفلة عشاء في نادي لجزيرة توديعاً لعميدها عبد العزيز سامي . وعند أواخر العشاء قام د. رشوان فهمي [2] فخطب مشيداً بعبد العزيز سامي ومدافعاً عنه . وكان جمال عبد الناصر قد صرَّح في خطبة له أنه لو كان قصر العيني يدار كما أدار محمود يونس هيئة قناة السويس ، ولما رأينا هذا الفساد في قصر العيني . فقال د. رشوان فهمي مشيراً إلى قول عبد الناصر مع تحاشي ذكر اسمه : لو أتيحت لعبد العزيز سامي الإمكانيات بل عُشر الإمكانيات التي أُتيحت لمحمود يونس ، لكان قد جعل من القصر العيني نموذجاً كاملاً لخير المستشفيات .

... وانتهت حفلة العشاء حوالي منتصف الليل وفي الساعة الرابعة صباحاً كان قد صدر قرار بفرض الحراسة على رشوان فهمي وفي الحال أخذت الشرطة الجنائية أو

([1]) د. عبد الرحمن بدوي " سيرة حياتي " ج ١ مرجع سابق ص ٣٥٩ .

([2]) د. رشوان فهمي ، نقيب أطباء مصر ثلاث مرات وواحد من القلائل المدنين في مصر الذين كانت تربطه بأغلب أعضاء مجلس قيادة الثورة وبالضباط الأحرار صداقة متينة ، كانوا يعلمونه بكل شيء ويعلم منهم بكل شيء عرف الكثير من الأسرار وأدق التفاصيل " سامي جوهر " الصامتون يتكلمون " المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، ص ٧ .

العسكرية بتفتيش شقته في الإسكندرية . وعاد رشوان فهمي إلى الإسكندرية ليجد في انتظاره بالشقة مندوبين من الشرطة والحراسة ، ما لبثوا أن أخذوا في استجوابه عن أمواله . فلم يجدوا معه غير عشر جنيهات وليس في حسابه بالبنك مبلغ يذكر ، ولا يملك أي عقار ... ونعود إلى الفترة ما بين منتصف الليل والساعة الرابعة صباحاً . ماذا حدث بكل هذه السرعة ؟ الذي حدث هو أن أستاذاً في طب الأطفال ، كان من عملاء المخابرات المباشرين اتصل فور خروجه من الحفل بعلي صبري وهو المسئول الأول عن " أجهزة القهر والبطش والتنكيل والتعذيب فشغل على صبري أجهزته الإجرامية هذه وكان ما أتينا على وصفه . [1]

وجرى حديث بعد ذلك بين د. عبد الرحمن بدوي ود. رشوان وكلاهما كان مؤيداً للثورة في بدايتها قال عنه د. بدوي : " وهذا مضى الحديث بين الندم والأسف : الندم على مبادرته بتأييد الثورة قبل أن ينكشف من أمر أصحابها شيء ، والأسف على ما وصلت إليه الحال في مصر من استبداد لم يعرف له التاريخ مثيلاً ؛ حاكم لا يحتمل عبارة قد يشتم منها ردٌّ هادئ برئ عليه ! وهو مع ذلك يمزق أسماع الناس في كل مناسبة بكلمات الحرية والكرامة . كيف يصل الأمر إلى حد أن كلمة رقيقة بسيطة كتلك التي قالها رشوان فهمي تثير ثائرة هذا الطاغوت ! وكيف يجرؤ بعد هذا أحد من الوزراء أو المشاركين له في السلطان أن يرد له قولاً ، أو ينبس بأرق مخالفة لرأيه ! ... الفزع والهلع والجبن والخور ، والتملق والنفاق – تلك كانت الأحوال النفسية والخلقية السائدة لدى الطبقات المثقفة في المجتمع المصري في عهد عبد الناصر . فإذا كانت هذه حال المثقفين ، فكيف يرجى لهذا المجتمع أي نهوض ؟! إن المثقفين هم ضمير الأمة ، فإن فسد الضمير فعلى هذه الأمة العفاء .

ويحار المرء في فهم هذه الحال التي سيطرت على نفوس هؤلاء المثقفين ، وخصوصاً أساتذة الجامعات . فإن لديهم في البحث العلمي والتفوق فيه ما يغنيهم عن

([1]) د. عبد الرحمن بدوي " سيرة حياتي " ج ١ مرجع سابق ص ٣٦٠، ٣٦١ .

التطلع إلى أي منصب وزاري . ولو استقرى المرء منهم من تولوا الوزارة ، لكان عليه أن يرضى عن نفسه لأنه لم يتولَّ أية وزارة ." [١]

وجاء الزمن الذي لم يذكر اسم جامعة عربية ضمن أفضل ٥٠٠ جامعة عالمية في الوقت الذي هناك سبع جامعات إسرائيلية من بين هذه الجامعات . [٢]

جناية عبد الناصر على التعليم

إن ما أفسد العملية التعليمية غير ضعف إمكانياتها وعدم كفاية العاملين فيها هو غياب الديمقراطية التي أفسد غيابها التعليم ، فلا ينبغي عند التطرق إلى الحديث عن التعليم في مصر ومأساته الراهنة أن يغيب عنا اتصال ذلك بغياب الديمقراطية عن حياتنا لزمن غير قصير ففي ظلال الحرية تنمو الثقافة وينمو الفكر وينطلق القلم إلى آفاق الإبداع الرحبة وكل ذلك هو ما يخلق أفضل البيئات لنمو حركة تعليمية أفضل وأصح وأرقى ، وعلى النقيض فإنه في ظلال الحكم الشمولي تذبل الثقافة يأفُل الفكر ويتقوقع الإبداع العلمي ، وينجم عن كل ذلك نظام تعليمي متخلف خاضع لأهواء الحكم الشمولي . [٣]

وعن فساد التعليم في الحقبة الناصرية يقول الأديب الكبير ثروت أباظة : "وقد جاء بنا عهد ذري كانت الكلمات فيه تموت وهى همس متهافت النبض في نفس صاحبها وأخرى تموت على سن القلم وثالثة تموت موءودة قبل ولادتها .. أيها الشباب تعلموا ما شئتم واشكروا من أتاح لكم هذا التعليم ولكن إذا لم تستطيعوا بتعليمكم أن تعرفوا معنى العرض والشرف ومعنى الكرامة ومعنى العدل ومعنى الإنسان ومعنى الحرية ومعنى الرعب ومعنى الذعر ومعنى الحريات المنتهكة ومعنى الظلم والقهر والجبروت فما تعلمتم شيئاً وكل ما أنفق عليكم ذهب هباء وبلا فائدة . " [٤]

([1]) د. عبد الرحمن بدوي " سيرة حياتي " ج ١ مرجع سابق ص ٣٦٢ .

([2])عادت جامعة القاهرة مرة أخرى إلى التصنيف الصيني كواحدة من أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم لعام ٢٠١١ وفق التقرير الذي نشرته جامعة شنغهاي وأوضح ظهور جامعة القاهرة في قائمة أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم، وهي الجامعة العربية الوحيدة التي ظهرت ضمن هذا التصنيف .

(3) طارق حجي " نظرات في الواقع المصري " مرجع سابق ص ٦٥.

([4]) ثروت أباظة جريدة الأهرام ٩ / ٥ / ١٩٧٨ .

ويقول فاروق جويدة : " كان إسقاط تاريخ الأحزاب السياسية في مصر قبل الثورة إهدار لكل مقومات التجربة الديمقراطية التي شهدتها مصر في النصف الأول من هذا القرن ، ومهما قيل عن أخطائها إلا أنها كانت تجربة وليدة تركت آثارها على الحياة السياسية والثقافية في مصر مع نهاية الأربعينات ولعل ما وصل إليه مستوى الإبداع والحوار والثقافة والفكر في هذه الفترة الوجيزة يتجاوز ما نحن فيه الآن من حيث القيمة والتأثير والدور . إن مصر ما زالت حتى الآن تعيش على رصيد رموزها في هذه الفترة الخصبة " [1] .

كما أن أغلب المعتقلين، وهم بالآلاف، في سجون ناصر من خريجي الجامعات، وآلاف مثلهم هربوا من مصر لدول الخليج، في وقت كانت نسبة الأمية ٨٤%، وكأن عبد الناصر أصبح زعيماً على شعب ما بيفكش الخط .. الدكتور حسين كمال الدين الأستاذ بكلية الهندسة كان معتقلاً في سجن الواحات وقت بناء السد العالي، والروس واجهوا مشاكل هندسية في هيكل السد العالي.. فحاولوا الاستعانة بالخبرة الأمريكية، واتصلوا بهم، فأخبرهم الأمريكان أن هناك أستاذاً مرموقاً في مصر اسمه حسين كمال الدين، فأخبر الروس عبد الناصر وتم إخراجه من المعتقل، وأصلح المطلوب، وأرجعه عبد الناصر مرة أخرى للمعتقل." [2]

ولم يتوقف النظام الناصري على القضاء على أهل الإبداع والمبادرة من زعماء الإصلاح من أبناء ثورة ١٩ بل أضل شباب مصر وأملها في مستقبل مشرق الذين ولدوا في الحقبة الناصرية والحقب التالية عليها .

فالدكتور عادل صادق الأستاذ بجامعة عين شمس يرُدُّ ضلال شباب سنة ١٩٧٧ إلى الحقبة الناصري التي تتمثل في : " أولاً : إعلام ظل موجها لسنوات طويلة ، واقتصر على الدعاية لقلة معينة ، وتشجيع كل ما هو سطحي وتافه ليصرف أنظار الناس عن الحقيقة وقتل تفكيرهم وإحساسهم بالمسئولية .

([1]) فاروق جويدة " من يكتب تاريخ ثورة يوليو " مرجع سابق ٧٤ .
([2]) د. حمادة حسني " ناصر الوجه الآخر " جريدة اليوم السابع بتاريخ ٢٠ / ٩ / ٢٠٠٨ .

ثانياً : نظام تعليم أجمع كل المتخصصين على أنه تعليم فاشل كل وظيفته تخريج موظفين لا يفكرون .

ثالثاً : قتل الإحساس بالانتماء إلى الوطن وذلك بقصر النشاط السياسي على المنتفعين المتعاونين .

رابعاً : قتل العقيدة من خلال إضعاف مراكز الدين .

خامساً: قتل روح الطموح في نفوس أبناء هذا الوطن وتحطيم كل القيم الإنسانية وإعلاء راية الانتهازية " [1] .

إن ما كان التعليم في العهد الناصري حريصاً عليه حقّاً هو الدعاية لعبد الناصر وفلسفة كل قراراته وتدريس كتابه " فلسفة الثورة " ووضع صورته على أول صفحة في أي كتاب دراسي ، والحط من شأن من سبقوه أو عادوه والعصف بكل أساتذة الجامعة الذين عارضوه وهم كُثُر مما نتج عنه جيل لا يحسنون إلا الترحم على أمجاد عبد الناصر ويكادون لا يحسنون عملاً إلا من رحم ربي .

إن للنظم التقدمية مؤشرات معروفة تدل – دون حاجة إلى مجهود – على أنها حققت أهدافها أو سارت في طريق تحقيقها بجدية . ومن هذه المؤشرات القضاء على الأمية ، وانخفاض معدلات الانحراف بأنواعه ونهوض التعليم ، وارتفاع مستوى الصحة العامة . وأخشى أن أقول أننا لو طبقنا هذه المعايير على التجربة الناصرية لكان من الصعب أن ندرجها ضمن النظم التقدمية ، فالأمية قد ظلت نسبتها على ما هي عليه .

أما التعليم فإن التوسع الكمي الهائل فيه – وهو عنصر إيجابي بلا شك – قد اقترن بتدهور كيفي رهيب أصبح يشكل بالفعل خطراً على مستقبل هذه الأمة ، وأما الانحرافات فإنا لم نسمع مثلاً أن إدمان المخدرات قد توقف أو تضاءلت نسبته بل على العكس من ذلك ازداد استفحالاً برغم تشديد العقوبات . [2]

([1]) د. عادل صادق جريدة الأخبار " لماذا يضل الشباب ؟ " بتاريخ ١٧ / ٩ / ١٩٧٧ .

([2]) د . فؤاد زكريا " عبد الناصر واليسار المصري " مرجع سابق ص ٣٣ ، ٣٤ بتصرف .

لقد زاد الإدمان من فرط الكبت الذي شعر به الناس وغياب الحريات ، وبسبب كارثة ٥ يونيو ١٩٦٧ والعجز عن فعل شيء فهرب كثير من الناس من الوقع المتردي إلى المخدرات ، وهرب كثير من الشباب إلى الفساد والانحلال ، وهرب البعض إلى التصوف والزهد ، ومن لم يجد له مهرباً وكان مشغولاً بالهمِّ العام أصيب بالاكتئاب مثل : صلاح جاهين الذي آمن بعبد الناصر زعيماً وكتب له الأغاني الخالدة وفوجئ بما حدث في ٦٧.

الوحدات الصحية في عهد عبد الناصر

ذكر خالد محيي الدين أن مجلس قيادة الثروة كان يسارع بإنشاء المدارس والحدات الصحية في القرى بغرض كسب الجماهير ، في معركة عبد الناصر ضد محمد نجيب أو ضد الديمقراطية . فماذا عن هذه الوحدات الصحية ؟

إن الوحدات الصحية الموجودة في كل قرية وأنا أشهد – وقد أمضيت جزءاً من طفولتي في القرية – بأني لم أر شيئاً منها قط إنما كان الحلاق هو طبيب قريتنا، فإذا كان المرض خطيراً وصاحبه ذو حيثية حملوه على حمار وساروا به عشرات الكيلومترات إلى مركز المحافظة حيث يوجد مستشفى وأطباء .

والأمراض المستوطنة وخاصة البلهارسيا لم يكد يسلم منها أحد .

ومن يرد أن يعرف صورة القرى المصرية فما عليه إلا أن يرى الأفلام التي صورت في قرى حقيقة مثل : يوميات نائب في الأرياف ، والأرض ، والزوجة الثانية ، والحرام وغيرها وكلها تمثل حال القرية المصرية في الخمسينات والستينات.

يقول فؤاد زكريا : " ولست أود التحدث عن تدهور الصحة العامة ، وعجز الفقير عن أن يجد العلاج ومهزلة الوحدات المجمعة فتلك كلها أوجاع يعرفها الجميع ، وتعاني منها الأغلبية الساحقة .

هذه كلها سلبيات لم يخترعها أحد ولا يوجد فيها أدنى نصيب للمبالغة ، إنما هي تعبير صريح عن واقع موضوعي . ولا جدال في أن من حق المدافعين عن التجربة

الناصرية أن يؤكدوا أن صورة الواقع الموضوعي لا تكتمل إلا إذا أضيف إليها الإيجابيات ، ولكن مثلما يتهم هؤلاء المدافعون خصومهم بأنهم لا يكشفون إلا عن وجه واحد للصورة هو الوجه السلبي فإن خصومهم يتهمونهم – عن حق – بأنهم لا يكشفون بدورهم إلا عن الوجه الإيجابي لتلك الصورة ، متغافلين تماماً عن وجهها السلبي الذي يشكل حقيقة لا جدال فيها . " [1]

أما ما يتشدق به المدافعون عن عبد الناصر فكل ما كان إيجابياً ينسب إلى مجلس قيادة الثورة ورئيسه محمد نجيب ابتداء من الإعداد للثورة ونجاحها وطرد الملك وجلاء الإنجليز إلى مجانية التعليم وبناء المدارس والوحدات الصحية وغيرها من المشروعات التي ذكرناها .

أما ما يعد عبد الناصر مسئولاً عنه بشكل كبير فيبدأ من سقوط محمد نجيب مريضاً بعد أزمة مارس ١٩٥٤ حتى حل مجلس قيادة الثورة بإعلان عبد الناصر رئيساً لمصر يوم السبت ٢٣ يونيه سنة ١٩٥٦ . منذ هذا التاريخ أو قبله بقليل وتحديداً منذ قرار تأميم قناة السويس يعد أي قرار سياسي مسئولية جمال عبد الناصر وحده . بما في ذلك حرب السويس ، والوحدة مع سوريا والانفصال عنها، وحرب اليمن ، والقرارات الاشتراكية ، وكارثة ٦٧ وحرب الاستنزاف .

وهذا ما يؤكده هيكل أكثر المدافعين عن عبد الناصر حيّاً وميتاً فيقول عن منزلة عبد الناصر بين أعضاء مجلس قيادة الثورة : " في بداية عملية التحول كانت على القمة السياسية مجموعة من الرجال والشباب لم يزيدوا على عشرة أطلق عليهم وقتها وصف " مجلس قيادة الثورة " لكنه كان واضحاً منذ اللحظة الأولى أن واحداً بالذات بينهم كان له وضع خاص أشبه بما يوصفه التعبير اللاتيني الشهير الذي يصف رجلاً بأنه " الأول بين متساوين " [2] .. وحينما توقف القتال (في حرب السويس) فإن

([1]) د . فؤاد زكريا " عبد الناصر واليسار المصري " مرجع سابق ص ٣٤ .
([2]) حسنين هيكل " سنوات الغليان " دار لشروق ص ١٠٦ .

الرجل " الأول بين متساوين " لم يعد متساوياً معهم .. وهكذا فإنه أصبح في لحظة النصر " أولاً " بغير منازع ، وأكبر بغير خلاف ، وحين سطعت الأنوار بعد الإظلام فلقد بدا وحده تقريباً في دائرة الضوء وفي مركزها تماماً . " [1]

والحقيقة أن عبد الناصر كان الأول بين متساوين حتى انتهاء أزمة مارس إذا استثنينا محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة الذي كان ينطبق عليه هذا الوصف حتى أزمة مارس ١٩٥٤ أما بعد أزمة مارس فينطبق هذا الوصف تماماً على جمال عبد الناصر بلا استثناء ، كما أنه بعد حرب السويس وجلاء العدوان الثلاثي أصبح عبد الناصر الأول بلا منازع والمسئول الوحيد عن كل القرارات السياسية .

***

[1] نفسه ص ١٠٨ .